جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

كلية العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية

قسم الفلسفة

السنة الثانية ماستر فلسفة عربية اسلامية

السنة الثانية ماستر فلسفة غربية حديثة و معاصرة

مقياس الفلسفة و النقد الثقافي

الأستاذة : شريقي أنيسة

الهيمنة الثقافية: قراءة في منظور أنطونيو غرامشي

1. المقدمة: من الإكراه المادي إلى الإقناع الفكري

في التقليد الماركسي الكلاسيكي، كان يُنظر إلى الدولة والسلطة عبر عدسة اقتصادية بحتة؛ حيث تُعتبر البنية الفوقية (الثقافة، القانون، السياسة، الدين) انعكاساً مباشراً للبنية التحتية الاقتصادية (علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج). وبناءً على ذلك، افترضت النظرية التقليدية أن الثورة ستحدث حتمياً عندما تتناقض قوى الإنتاج مع علاقات الإنتاج، مما يؤدي إلى انهيار الرأسمالية بفعل الأزمات الاقتصادية.

لكن **أنطونيو غرامشي** (1891–1937)، وهو مفكر ماركسي وقائد مؤسس للحزب الشيوعي الإيطالي عانى طويلاً في سجون الفاشية الموسولينية، لاحظ شيئاً مختلفاً في أوروبا الغربية مقارنة بروسيا القيصرية التي شهدت نجاح الثورة البلشفية عام 1917. في روسيا، كانت الدولة عبارة عن قوقعة هشة فوق مجتمع مدني ضئيل، مما جعل إسقاط مركز السلطة المادي ممكناً. أما في دول أوربا الغربية، فقد وجد غرامشي أن المجتمع المدني (الكنيسة، النقابات، المدارس، وسائل الإعلام، دور النشر) يمتلك **"خنادق ودفاعات حصينة"** تمنع الطبقة العاملة من الوصول إلى السلطة لمجرد السيطرة على الحكومة أو المصانع.

من هنا وُلِد مفهوم **الهيمنة الثقافية (Cultural Hegemony)**؛ ليشرح كيف تُحافظ الطبقات المهيمنة على سيطرتها لا فقط بالقوة والإكراه، بل **بالقبول الطوعي** والرضا الفكري والأخلاقي للطبقات المحكومة.

2. المفاهيم المركزية في نظرية غرامشي

لكل نظرية مفاتيحها المفاهيمية، وتستند هيكلية غرامشي الفكرية إلى ثلاث ركائز أساسية:

أ. الهيمنة (Hegemony): الإقناع مقابل القسر

يميز غرامشي ببراعة بين نوعين من السيطرة تمارسهما الطبقة الحاكمة:

- **الهيمنة (Hegemony):** وتتمثل في القيادة الأيديولوجية والثقافية والأخلاقية. تعني قدرة الطبقة المهيمنة على جعل مصالحها الخاصة تبدو وكأنها مصالح وطنية وعامة يتبناها الجميع (حتى المحكومين). إنها الهيمنة القائمة على الرضا والإجماع.
- **الهيمنة القسرية (Domination / Coercion):** وتتمثل في استخدام أدوات الدولة القمعية (الجيش، الشرطة، القضاء، السجون) لفرض النظام عند فشل الإقناع أو ضد الخارجين عن الإجماع العام.

وفقاً لغرامشي، لا تستطيع أي طبقة أن تستمر في الحكم لفترة طويلة إذا اعتمدت فقط على القسر والعنف؛ فالاستقرار الحقيقي يتطلب بناء **إجماع ثقافي** تجسده مؤسسات المجتمع المدني.

ب. المجتمع المدني مقابل المجتمع السياسي (الدولة)

أعاد غرامشي صياغة تعريف الدولة بتوسيع مفهومها لتشمل جزأين متداخلين:

1. **المجتمع السياسي (Political Society):** ويقصد به جهاز الدولة التقليدي (الحكومة، الإدارة، الجيش، الشرطة، المحاكم)، وهو مجال **القسر** المباشر.
2. **المجتمع المدني (Civil Society):** ويقصد به شبكة المؤسسات الخاصة وغير الحكومية (الكنيسة، المدارس، الجامعات، النقابات، وسائل الإعلام، الجمعيات الثقافية، دور السينما والنشر)، وهو مجال **الإقناع والتوافق**.

في الدول الرأسمالية المتقدمة، يُعتبر المجتمع المدني هو خط الدفاع الأول عن النظام القائم؛ لأنه يصوغ "الفطرة السليمة" (Common Sense) للمجتمع، ويغرس قيمه ومعاييره دون أن يشعر الأفراد بأنهم يتعرضون لغسيل مغسول أو توجيه قسري.

ج. المثقف العضوي (The Organic Intellectual)

تساءل غرامشي: كيف تُصنع الهيمنة الثقافية؟ الإجابة تكمن في دور **المثقفين**. رفض غرامشي فكرة أن المثقفين كائن محايد أو معزول عن الصراعات الطبقية، وقسّمهم إلى نوعين:

- **المثقف التقليدي (Traditional Intellectual):** وهم الأكاديميون ورجال الدين والفنانون التقليديون الذين يظنون أنهم مستقلون ومحايدون، لكنهم في الواقع يعيدون إنتاج أيديولوجيا النظام السائد بحكم ارتباطهم التاريخي بالبنية القائمة.
- **المثقف العضوي (Organic Intellectual):** وهم المفكرون والمناضلون والفنانون الذين تنبتهم وتربيهم كل طبقة اجتماعية جديدة صاعدة (سواء كانت البرجوازية صاعدة تاريخياً أو الطبقة العاملة حالياً). هؤلاء هم مهندسو الوعي؛ إذ يقومون بصياغة الأفكار، واللغة، والنظريات التي تعبر عن وعي وهُوية طبقتهم وتمنحها القدرة على قيادة المجتمع ثقافياً.

3. آليات عمل الهيمنة الثقافية في الواقع المعاصر

لا تقتصر الهيمنة الثقافية على النصوص الفلسفية، بل تتجسد يومياً عبر قنوات متعددة:

- **تطبيع علاقات التفاوت:** تصبح الفوارق الطبقية، أو الاستغلال الاقتصادي، أو الهيمنة الجيوسياسية أموراً "طبيعية" ومحسومة بحكم الطبيعة البشرية أو كفاءة السوق، وليست نتاج ترتيبات سياسية وتاريخية قابلة للتغيير.
- **صناعة الثقافة (Culture Industry):** إنتاج وسائل الإعلام، والسينما، والموضة، وشبكات التواصل الاجتماعي لخطاب يكرس قيم الاستهلاك الفردي، والنجاح المادي اللحظي، وتهميش العمل الجماعي والنقد البنيوي.
- **إعادة إنتاج اللغة والمفاهيم:** تُستخدم الكلمات والمصطلحات المهيمنة (مثل: "الكفاءة"، "النمو"، "التحرير") بمعانٍ تخدم مصالح النخبة الحاكمة، بحيث يصبح التفكير خارج هذا القاموس اللغوي أمراً "شاذًا" أو "غير واقعي".

4. الخاتمة: طريق التحرر وبناء "الهيمنة المضادة"

خلص غرامشي إلى نتيجة استراتيجية بالغة الأهمية: **لا يمكن إحداث تغيير سياسي أو اقتصادي حقيقي (ثورة هيكلية) ما لم يسبقه ويرافقه تغيير ثقافي وفكري.**

لذلك، دعا غرامشي الطبقات المضطهدة إلى بناء **"هيمنة مضادة" (Counter-Hegemony)** من داخل المجتمع المدني عبر:

1. تفكيك الأساطير والأيديولوجيات المهيمنة التي تكرس الخضوع.
2. خلق ثقافة بديلة وقيم جديدة تقوم على التضامن، والعدالة، والوعي النقدي.
3. إعداد "مثقفين عضويين" قادرين على مخاطبة الجماهير بلغة واعية ومفهومة، ليكون التغيير نابعاً من إرادة شعبية واعية لا مجرد انقلاب فوقي.

وبهذا، تحول غرامشي بالماركسية من اقتصاد صرفٍ حتموي إلى فلسفة حية تمنح للإنسان والثقافة والوعي الدور الأكبر في صناعة التاريخ وتغيير العالم.